

من كان يعبد بشاراً فإنه قد مات !

الكاتب : مجاهد مأمون بيرانية

التاريخ : 22 مايو 2012 م

المشاهدات : 5428



لا، لم يمت وأنا أكتب هذه الكلمات، ولو مات فإني لم أسمع بخبر موته بعد، لكنه سيموت ذات يوم بعيد أو قريب: {وما جعلنا لبشر من قبلك **الخلد**، أفنن مت فهم **الخالدون**؛}، وإنى لأنظر بعين الخيال إلى ذلك اليوم فأرى صنفين من الناس سيقولون: لا، لم يمت!

الأولون لا شأن لي بهم، أولئك الذين عبده حيا - وما أسفه من معبود! - ولعلهم إذا مات حملوا السيف وقالوا: بشار إلهنا الذي لا يموت، ومن زعم أنه مات قطعنا عنقه. قطع الله أعناقهم وألحقهم به في قعر الجحيم. ثم سيعبدونه ميتاً كما عبده حياً فيقولون: إنه لم يَمُتْ ولكنه ارتفى إلى السحاب أو غاب في السرداب. ولقد قالها من قبل آخرون، فما أشد سفاهة العقول حين تُسْفِّر العقول!

الصنف الثاني هم الذين أريدهم اليوم، وهو قوم منا عرفتني بهم الحادثة الأخيرة التي تابعتها متابعة حثيثة من الساعة الأولى التي صدر فيها البيان الموجز لكتائب الصحابة، وقد وصلني بالبريد من الإخوة في “تجمع أحرار دمشق وريفها للتغيير الإسلامي”， فإنهم أدرجوني - مشكورين - على قائمه البريدية منذ شهور فصررت ألتقي منهم التقارير القيمة التي ينشرونها كل يوم ويُجملون فيها أخبار الثورة في دمشق وريف دمشق. تابعت الخبر وقرأت كل ما نُشر عليه من تعليقات خلال الساعات التالية حتى الصباح، وكذلك التعليقات التي نُشرت في صفحة كتائب الصحابة، فوُجدت أن أكثرها يميل إلى التشكيك وصولاً إلى النفي والتکذیب، وبلغ الغضب بفريق صغير من القراء إلى هجاء الصفحتين ومديريهما واتهامهما بالتلتفيق.

تلك التعليقات ساءتني وسررتني معاً. تقولون: ولكنها ضدان لا يجتمعان؟ بل، لقد اجتمعا، ومنهما جاءت هذه المقالة.

* * *

سرني الحذر الذي دفع أصحابه إلى إنكار الخبر وتکذیبه. أولئك قوم يستحقون التهنة والإكبار، وإنما لحتاج من أمثالهم الكثير ليوازنوا الأعداد الكبيرة من الناس ينساقون وراء كل إشاعة بلا تمحيص ولا تفكير. ولكنني أوجه إليهم كلمة أرجو

قبل عدة سنوات كتبت مقالة طويلة تحدثت فيها عن الوباء العقلي الذي اجتاح عقول المسلمين حتى جعلنا أضحوكة بين الأمم، فلا يكاد فضاء الشبكة العالمية (الإنترنت) يتغافى من حملة محمومة لترويج "خبر القرن" حتى يت伝ق فيه خبر جديد، وفي كل مرة تتعاون جيوش خفية من "المحتسين" لنشر الخبر بكل سهولة، برسائل البريد وعبر المنتديات والمواقع والصفحات. فمرة ينتشر خبر الفتاة التي انقلبت قرداً أو نعجة لأنها استهزأت بالقرآن، ومرة صورة المحارة التي وجدها في قاع البحر وقد نُحت داخلها لفظ الجلالة... ولا تزال الرسائل تصلك مذلةً بتلك العبارة السحرية: "انشر تؤجر"! ويا ليتهم استبدلوا بالكلمة الأولى غيرها فصارت العبارة: "فكّر تؤجر"، فإن التفكير هو الذي أمرنا به وإذا أجبنا الأمر أجرنا، حتى لقد سماه العقاد رحمة الله "فريضة" وخصص له كتاباً من كتبه جعل عنوانه "التفكير فريضة إسلامية".

في تلك المقالة قلت إن كل واحد منا ينبغي أن تكون له "مصدقة عقلية" يصنف بها ما يستقبله عقله من معلومات وبيانات، مما يت伝ق عليه من الكتب والصحف والإذاعات والفضائيات. وماذا تعمل المصدقة؟ إنها ذات ثقوب تسمح للمادة الصافية بالمرور وتحتج الشوائب، وكلما كانت فتحاتها أوسع كلما سمحت بمرور مزيد من الشوائب، من أكاذيب وترهات وخزعبلات، وكلما كانت الثقوب أضيق كانت المادة المتقابلة نقية صافية تستحق التصديق والاحترام.

مشكلة "الثقوب الواسعة" هي الأكثر انتشاراً بين الناس، إنها مشكلة أكثر العوام، تقابلها مشكلة أقل انتشاراً هي "الثقوب المسدودة"، وهي مشكلة بعض المثقفين، وكما قال الشاعر: "كلا طرفَيْ قَصْدُ الأمورِ ذمِيمٌ". من كانت ثقوب مصفاته العقلية واسعة فإنه يشبه حاسوباً لم يزود بمكافحة فيروسات، فتتسارع إليه الملفات المحمّلة بأنواع مختلفة منها دون أن يمنعها مانع، وبعد حين يصبح الحاسوب ملوثاً بالفيروسات وعاجزاً عن العمل بكفاءة. الآخر صاحب المصدقة المسدودة الثقوب يشبه حاسوباً مزوداً ببرنامج حماية يحظر كل الملفات المستقبّلة تلقائياً، فهو أبداً رافضٌ لها ولا يكاد يستفيد صاحبه منه بشيء.

* * *

لا أريد أن يغيّر العقلاء عادتهم في الشك والاحتياط، فإنها عادة نافعة، ولكن أتمنى أن يضبطوها بضابط مفيد. إذا أتاك خبر غريب فلا تعجل بردّه قبل أن تفحص سنته ومتنه؛ فإذا كان المتن (المحتوى) ممكناً غير مستحيل، ولو بدا غريباً، فإنه لا ينبغي ردّه وإنكاره قبل فحص المصدر، فإذا كان المصدر موثوقاً أو كان الناقل الذي نقل الخبر أميناً عاقلاً فإن الخبر جدير بأن يُفحّص ويُنقضّ بحذر واهتمام، وكثيراً ما يكون صحيحاً.

خذوا الحادثة الأخيرة مثلاً على ما سبق. عندما وصلني الخبر -أول ما وصلني- استكبرته وشككت فيه للوهلة الأولى، ولو أنه وصل من مصدر مجهول لاطرحته وما باليت به، فما أكثر ما تدور الأخبار "الموضوعة" في فضاء الإنترنت. ولكنه وصل من مصدر معروف موثوق، فإني متبع لما ينشره "جمع أحرار دمشق" منذ شهور طويلة، وما وجدت عند أصحابه مبالغة ولا تسرعاً ولا رأيت قط ترويجاً لخبر باطل، فهم إذن مصدر آمن. ذهبت إلى صفحاتهم فوجدت الخبر مثبتاً في أعلىها، فسألت: هل يمكن أن تكون الصفحة مختَرقَة؟ لم أستطع الجواب على هذا السؤال بنفسي لقلة علمي، ثم طمأنني مالك، ابن أخي مؤمن، وهو فقيه في هذه المسائل، فقال إنه فحص الصفحة وروابطها وتحقق من سلامتها (وأنا لا أعرف ما يعني الروابط ولا أعرف كيف تُفْحَص، ولكني وقفت بفحص الفاحص لثقتي بعلمه وأمانته).

بقي علىّ أخيراً أن أفحص الخبر، فسألت نفسي: هل هو مستحيل؟ الجواب: لا، غاية ما هنالك أنه صعب التحقيق ومستبعد الوقوع. إذن فإن إنكاره ورفضه بالكلية يعني أنني قليل الثقة بإخواننا الذين يخوضون الحرب ضد النظام، ويعني أيضاً أنني

ضعيف الأمل بالله وبنصر الله. أنا لا أحب أن أكون قليل الثقة بأصحاب الثورة وبالعاملين الصادقين المخلصين فيها، ولا أرتضي لنفسي أن يكون أمري بالله وبنصر الله ضعيفاً متهافتاً، فمن ثم لم أجد مانعاً يمنعني من قبول الخبر رغم غرابته ومفاجأته.

* * *

إن تكذيب الخبر الغريب المفرح قد يكون سلوكاً عقلياً وقد يكون سلوكاً نفسياً. في الحالة الأولى يرفض العقل التصديق لأنه محسن ضد الاختراق العشوائي ولا يسمح بأن يُخدع بالشائعات الكاذبة والأخبار الملفقة، وهذا أمر حسن كما قلت آنفاً، وهو الذي سرّني. ما ساعني هو الآخر. لماذا؟ لأن "الرفض النفسي" سببه تحصين ذاتي يحصننا به عقلنا اللاوعي لتفادي الإحباط وخيبة الأمل. سأضرب مثلاً: بعض المتاجر تنظم أحياناً مسابقات ترويجية فتوزع قسائم للمشترين ثم تُجري سحبًا عشوائياً، فمن سُحب رقمها فاز بسيارة جديدة. هذا النوع من المسابقات مشروع إذا كان المشتري محتاجاً إلى البيضاءة وكان في بيته شراؤها على أية حال، أما إذا اشتراها من أجل قسيمتها فعندها يتحول إلى ميسير (قامار) محظوظ، والله أعلم. لو أن مشترياً حصل على القسيمة ومضى يُمْتَنِي نفسه بالربح ويتخيل السيارة الجديدة وقد صارت له، ثم لم يَفُز (وهو غالباً لن يفوز لأن احتمال الفوز أضال من الضاللة) فإنه سيصاب بإحباط وخيبة أمل، فمن أجل ذلك يحمي بعض الناس أنفسهم فيستبعدون احتمال الفوز ولا يفكرون به، أو يصنعون مثلثاً فيتركون القسائم للبائع ولا يبالون بأخذها أصلاً.

هذا السلوك النفسي ليس أمراً معزولاً مستقلاً بذاته، بل هو امتداد لقناعة يتبعها العقل، تقول إن الفرصة في الفوز شبه معروفة لأنها قد تبلغ واحداً في المليون أو أقل من ذلك (أليست قسيمي واحدة من مليون قسيمة يطبعونها ويوزعونها؟) وهنا بيت القصيد: إن الذين مارسوا هذا السلوك النفسي وكان هو دافعهم إلى تكذيب خبر ضرب "الخلية الأمنية" وقتل من قتل من مجرميها الكبار، هؤلاء استقرت في عقولهم الباطنة (اللاوعية) قناعةً تقول إن ضرب النظام ضربةً قاصمة أمرٌ مستحيل أو شبه مستحيل، أو بعبارة أخرى: لقد استوطن اليأسُ قلوبهم.

لماذا يا عباد الله؟ أتستكثرون على الله أن يمد جنوده بنصر كبير؟ أمّا إنهم ما كانوا ليستحقوا هذا النصر لو أنهم قعدوا في بيوتهم ومدوا أيديهم إلى السماء يطلبون النصر، ولكنهم لم يفعلوا. لقد توكلوا على الله واستنصروه، ثم قاموا فشمرموا الأكمام عن السواعد وانطلقوا يعملون، يجمعون الأخبار ويعدّون العدة ويضعون الخطط ويجتهدون في التنفيذ؛ فإنهم قد جمعوا شرطي الفلاح: عملوا وتوكلوا على الله. فلماذا لا ينصرهم الله؟

يا أيها اليائسون: استبشروا بنصر الله، انشروا التفاؤل وانثروا الأمل، فإن نصر الله الكبير آت بإذنه تعالى، سيأتي فجأة وأنتم لا تشعرون. من منكم قطع ذات يوم سلكاً غير قطاعاً؟ ما أكثر ما صنعنا ذلك ونحن صغاري؛ تأخذ السلك وتتطويه ثم تفتحه، وتكرر ذلك مرات ومرات، وإذا بالسلك ينقطع قطعتين بعد حين. ربما انقطع بعد خمسين محاولة أو سبعين أو تسعين؛ كان قبل الثانية الأخيرة قطعة واحدة ثم غداً قطعتين، ولكن الذي شطره لم تكن تلك الثانية، بل تراكم الثنائيات السابقات جميعاً.

نعم، إن الحوادث الكبيرة ستأتي فجأة، ولكنها لن تأتي من عدم، إنها ستكون نتيجة الضغط المتراكם والعمل الدؤوب الذي اشترك فيه عشرة ملايين من أبطال سوريا وثابروا عليه الزمن الطويل. يا أيها الناس: لا تستغربوا إن استيقظتم ذات صباح فكان أول ما سمعتموه من أخبار: لقد قُتل بشار الأسد واستسلم النظام للنوار.

المصدر: مدونة

الزلزال السوري

المصادر: